الفصل الأول

العضو الأول : في هذه الأسرة المباركة

أبو مريم عليها السلام عمران

يعد عمران المؤسس الأول لهذه الأسرة المباركة ،نحن في هذا الفصل نتناول السيرة الذاتية لهذا الرجل الكريم الذي أنجب لنا هذه السيدة الفاضلة مريم عليها السلام، ثم نتناول الدروس المستفادة التي يمكن أن نستخلصها من حياته ، والاستفادة منها في حياتنا اليومية وتطبيقها على أرض الواقع. . .

وهذه الدروس يمكن إجمالها فيما يلي

الدرس الأول : هل صلاح الآباء ينفع الأبناء ؟

الدرس الثاني : كيف نؤمن على أبنائنا في الحياة ؟

الدرس الثالث : من عمل سوءًا يجز به . .

obeikandl.com

عمران أبو مريم

من هذا الرجل الذي بلغ من تشريفه وتكريمه أن ذكر اسمه صراحة في القرآن الكريم. . .

من هذا الرجل الذي بلغ من فضله أن سورة في القرآن الكريم تحمل اسمه واسم عائلته. . .

من هذا الرجل الذي كرم وشرف بأنه أصبح يحمل لقب أبي سيدة نساء العالمين وما هي الدروس المستفادة. .

هو عمران بن باشم الذي ينتهي نسبه إلى سليمان بن داود عليهما السلام، وكان صالح صاحب صلاة بني إسرائيل في زمانه ، أي أنه كان إمامهم الذي يؤمهم في الصلاة ، وهذه كانت منزلة رفيعة عالية ، لا يصل إليها إلا من كان من الطيبين الأخيار. . .وقد أخبرنا القرآن بذلك فقال الحق تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ [آل عمران: ٣٣، ٣٤].

في هذا القول يخبر الكريم . .يخبرنا الحق تعالى ، أنه اختار هذه البيوت على سائر أهل الأرض فاصطفى آدم عليه السلام فخلقه بيده ، ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته وعلمه أسماء كل شيء وأسكنه الجنة ثم أهبطه منها لما له في ذلك من الحكمة .

واصطفى نوحا عليه السلام وجعله أول رسله بعثه الله إلى أهل الأرض لما عبد الناس الأوثان ، وأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وانتقم له لما طالت مدته بين ظهراني قومه يدعوهم إلى الله ليلاً ونهاراً ، سراً وجهراً ، فلم يزدهم ذلك إلا فرارا، فدعا عليهم فأغرقهم الله عن آخرهم ، ولم ينج منهم إلا من اتبعه على دينه الذي بعثه الله به .

واصطفى آل إبراهيم ومنهم سيد البشر وخاتم الأنبياء على الإطلاق محمد ﷺ ،

واصطفى آل عمران والمراد بعمران هذا والد مريم بنت عمران أم عيسى ابن مريم عليه السلام أي أنه جد نبي من أولى العزم من جهة الأم [١].

أعضاء الأسرة المباركة إجمالاً

أخي المسلم أختي المسلمة نحن نعيش في عصر طغت فيه الماديات وكثرت فيه المنافع ، فأصبح فينا من عبد المال من دون الله عز وجل ، وأصبح بحق عبد الدينار والدرهم ، وهناك من عبد السلطة والكرسي ، وهناك من عبد الشهوة إلى غير ذلك من مفاتن الدنيا ومغرياتها هذا من ناحية .

ومن ناحية أخرى . . سارت بيننا مبادئ غريبة عن عقائدنا ، غريبة عن أخلاقنا ، وأصبح الدين آخر شيء نفكر فيه ، وأصبحت الأخلاق الفاضلة ضرباً من الخيال إلا من رحم ربك فترتب على ذلك أننا بعدنا عن الدين بعدنا عن الأخلاق الفاضلة .

فلذلك تعالى ـ أخي القارئ الكريم وأختي القارئة ـ لنتعرف على أسرة مكونة من ستة أفراد ،وهي زوج وزوجة وابنة وحفيد وزوج خالة وابنه . . . بلغ من شرف هذه الأسرة أنها ذكرت في القرآن إما بأسماء أشخاصها أو بأوصاف البعض منهم ، ولكل شخص من أفراد هذه الأسرة دور عظيم حري بكل مسلم ومسلمة أن يتعرف على دور هذه الأعضاء فرادى أو جماعة .

لعل سائلاً يسأل ويقول: أين مكان هذه الأسرة ومتى زمانها ؟

المكان . . . أرض الأنبياء أرض الفتن والملاحم أرض الحروب والكروب أرض الشهداء ، أرض الزيتون أرض فلسطين مدينة بيت لحم المباركة . . .

الزمان . . . وجدت هذه الأسرة منذ أكثر من ٢٠٣٠ سنة تقريباً والعلم عند الله عز وجل ، وقبل بيان أعضاء هذه الأسرة نود أن نذكر أن الهدف وباختصار ترسيخ العقيدة في النفوس ، لأن من أراد العز فعليه بالدين ومن أراد الغنى فعليه بالدين ، ومن أراد خيرى الدنيا والآخرة فعليه بالدين . . .

---

(١) ذكر سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ في القرآن في خمس وعشرين سورة سبع عشرة مكية وثمان مدنية، وقد ذكرت قصته تارة مختصرة وأخرى مطولة .

الهدف الثاني . . أخذ القدوة الصالحة لأن القدوة هي الهدف . . .

الهدف الثالث . . الدروس المستفادة من حياة أفراد هذه الأسرة .

أعضاء هذه الأسرة إجمالاً

العضو الأول : عمران أبو مريم .

العضو الثاني : أم مريم .

العضو الثالث : مريم عليها السلام .

العضو الرابع : زكريا عليه السلام .

العضو الخامس : نبي الله يحيى عليه السلام .

العضو السادس : نبي الله عيسى عليه السلام .

فهذا الرجل كما وصف أنه رجل صالح تقي ، فما كان الله عز وجل ليضيع ذريته من بعده ، وابنته بعض ذريته .

فلما مات وقضى نحبه قيض الله لابنته من يتكفلها ويحسن تربيتها ، وهذا من شيمة الصالحين .

ولذلك فإن أبا الإمام أبي حامد الغزالي كان رجلا صالحًا تقيًا فلما حضرته الوفاة وأحس بدنو أجله ، وأن شمس حياته كادت أن تغرب ولديه ولدان صغيران هما أبو حامد ، وأحمد ، فعهد بهما إلى صديقه وصاحبه وكان رجلاً صالحًا . . فوفى للرجل بما كان عليه من عهد ورباهما على الصلاح والتقوى والإخلاص .

فخرج إلينا حجة الإسلام الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله رحمة واسعة ، الذي ملأ الدنيا علما وزهدا وورعا وتقوى وما زلنا إلى الآن نرتوي من علمه وزهده .

وكذلك . . أخوه الإمام أحمد الذي كان حجة زمانه .

إذاً فصلاح الآباء ينفع الأبناء في الدنيا والآخرة .

obeikandl.com

الدروس المستفادة

نحن في هذه السطور القليلة نحاول أن نبين ماذا نستفيد من قصة هذا الرجل الصالح ، من أجل أن نسير على طريقه ونقتفي أثره ، وهل أن صلاح الشخص مقصور عليه أم يمتد إلى غيره . . . ؟

صلاح الآباء ينفع الأبناء

من المعلوم أن الأب إذا كان صالحًا فإن أثر صلاحه ينعكس على ذريته في حياته وبعد مماته ، لأن الأبناء كما قيل: ميراث الآباء. . . وقد أشار القرآن إلى ذلك في قوله تعالى : ﴿ **وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا** ﴾ [النساء: ٩] .

يقول ابن عباس رضي الله عنهما :هذا في الرجل يحضره الموت فيسمعه رجل يوصي بوصية تضر بورثته فأمر الله تعالى الذي يسمعه أن يتقي الله ويوفقه ويسدده للصواب ، فينظر لورثته كما كان يحب أن يصنع بورثته إذا خشي عليهم الضيعة .

وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ لما دخل على سعد بن أبي وقاص يعوده، قال : يا رسول الله إني ذو مال ولا يرثني إلا ابنة ، أفأتصدق بثلثي مالي . قال: «**لا**» ، قال : فالشطر ، قال: «**لا**» ، قال : فالثلث . قال : « **الثلث والثلث كثير**». ثم قال رسول الله ﷺ : « **إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس** »[1] .

في هذا الحديث النبوي الشريف . .يبين لنا فيه الذي لا ينطق عن الهوى ، أن المسلم مطالب أن يسعى ويجد ويكد من أجل أن يترك لورثته خيراً وفيراً ما دام من حلال وأدى حق الله فيه ، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى . . .فإن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عندما أحس بدون أجله ، وكان ذا مال عريض أراد أن يتصدق بماله كله وينال ثوابه في الآخرة ، ولكن الرسول ﷺ قال :« **لا** » ، ثم قال : الشطر أي أنه أراد أن يتصدق بنصف ماله فأبى إلى أن رضي رسول الله ﷺ أن يتصدق

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

بالثلث وقال له هذه الكلمة الخالدة : « **أن تترك ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس**» .

قد جاء في الخبر . .أن رجلاً كان يعمل تاجرا ، فأراد أن يخرج في تجارته إلى بلاد بعيدة ، وكانت زوجته حاملاً اقترب ميعاد وضع حملها ، فقالت له : يا فلان ، إلى من تكلني ؟ وأنت تعلم أن موعد مخاضي قد اقترب .

قال بلغة الواثق : أدعك أمانة عند من لا يغفل ولا ينام ، ثم توضأ وصلى لله ركعتين ودعا الله عز وجل قائلاً : اللهم إني قد استودعتك ما في بطن زوجتي فاحفظه . .

وخرج في تجارته ومكث شهوراً وعاد من رحلته وسأل عن زوجته : أين هي؟ فقال له بنو عمومته وأهل بيته : توفيت أثناء مخاضها ، فدفناها ولكن نرى عجبا ، إذا جاء الليل نرى عمودا من نور على قبرها ممتدًا بين السماء والأرض فذهب إلى قبرها فوجد طفلاً صغيرًا يرضع من جانب من ثديها ، قد أحياه الله عز وجل فأخذه، وقال : والله إن هذا لابني .

وقبل أن يغادر أرض المقابر إذ سمع صوتا يقول : يا هذا استأمنتنا عليه فحفظناه ولو استأمنتنا على أمه لحفظناها[١] .

قيل: إن هذا الرجل كان صالحا تقيا ، فصلاح الأب ينفع الأبناء ، حتى ولو كانوا في أرحام أمهاتهم .

---

(١) هذا الأثر منقول من محاضرة للدكتور تاج الدين نوفل . .بتصرف يسير .

وهذا نموذج لا يقل روعة عن سابقه :

إنه معجزة الإسلام عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ تعالوا لنتعرف على ما تركه لأبنائه من بعد وفاته، وهو كان حاكماً لدولة من أعظم دول العالم، ها هو ذا راقد في داره المتواضعة ، فوق حصيره المعهود ويدخل عليه ابن عمه . مسلمة بن عبد الملك ، فيقول له :

يا أمير المؤمنين ألا توصي لأولادك ، فإنهم كثيرون وقد أفقرتهم ، ولم تترك لهم شيئاً ؟

ويجيبه عمر : وهل أملك شيئاً أوصي لهم به ؟ أم تأمرني أن أعطيهم من مال المسلمين ، والله لا أعطيهم حق أحد أبداً .

وهم بين حالين : إما أن يكونوا صالحين ، فالله يتولاهم ، وإما غير صالحين فلا أدع لهم ما يستعينون به على معصية الله ؟

وأمره أن يدعو أولاده ، فجاؤوا مسرعين . .اثنى عشر ولدا وبنتا ، شعثا غبرا ، قد زايلت جسومهم الشاحبة نضرة النعيم ، وجلسوا يحيطون به ، وراح يعانقهم بنظرته الحانية الأسية. . .ويتحسس بيمينه ثيابهم البالية وتغالب دموعه ، فتغلبه فيواريها وراء كلماته التي راح يودع بها أبناءه وأحباءه :

يا بني . .إن أباكم خير بين أمرين أن تفتقروا ، ويدخل الجنة . . .وأن تستغنوا ويدخل النار . فاختار الجنة. . .وآثر أن يترككم لله وهو يتولى الصالحين [١].

هذا الرجل الأواب كان يحكم دولة من أكبر الدول بل وأقواها على الإطلاق في العالم وكانت تحت يديه القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، حتى تحولت الملايين من أبناء أمته ، من جياع فشبعوا ، والعراة فاكتسوا ، والخائفون فأمنوا ، والمستضعفون فسادوا، واليتامى فوجدوا فيه أباهم ، والأيامة وجدوا فيه عائلهن وأخاهن ، والطائعون وجدوا فيه ملاذهم، والتائهون وجدوا فيهم دليلهم ، كل هؤلاء وأولئك أعطاهم حتى استغنوا فكان يطوف عماله بالمال فيردون به لأنهم لا يجدون من

---

(١) خلفاء الرسول ، خالد محمد خالد صـ٤٠٧، ٧٠٥ .

يأخذه ، زوج من يريد الزواج ، حفر الترع والأنفاق جهز الجيش فعل كل شيء فيه خير وفلاح وصلاح للأمة ، أمام أبنائه فلم يترك لهم شيئاً من مال أو متاع الدنيا .

ولكنه ترك لهم أفضل شيء وأعظم شيء وأبقى شيئًا ترك لهم عملاً صالحاً ينفعهم به في الدنيا والآخرة ، يقول بعض الرواة: والله لقد رأينا بعض أولاد عمر بن عبد العزيز يحمل على ثمانين فرسًا في سبيل الله ، وكان بعض أولاد سليمان بن عبد الملك ـ كان خليفة قبل عمر ـ مع كثرة ما ترك لهم من الأموال يتعاطى ويسأل من أولاد عمر بن عبد العزيز ؛ لأن عمر وكل ولده إلى الله عز وجل ، وسليمان وغيره إنما يكلون أولادهم إلى ما يدعون لهم فيضيعون وتذهب أموالهم في الشهوات [١].

فهذه رسالة إلى كل أب أراد أن يؤمن على أبنائه نقول لهم أمن عليهم بكلمة طيبة بعمل صالح ، بفعل معروف ونهي عن منكر ، وإن أردت أن تترك لهم مالاً فاجعله من حلال حتى يبارك الله فيه .

وأنت كذلك أيتها الأم نوجه إليك رسالة ، أن الكلمة الطيبة تنفع الأبناء والفعل الخير تجدين ثمرته من بعدك لأبنائك، ولنستمع لهذا الحديث القدسي الجليل الذي يقول فيه المولى عز وجل : « **أنا الله الذي لا إله إلا أنا إذا رضيت امتد رضاي إلى العقب السابع وإذا غضبت فلا حد لغضبي** » .

الدرس الثاني : كيف نؤمن على أبنائنا ؟

لعل سائلاً يسأل إني أريد أن أؤمن على أبنائي في الحياة وأترك لهم ما يستندون عليه في الحياة . من مال وأطيان وغير ذلك ؟

والإجابة عن هذا اعلم أخي المسلم أنه لا يمنع أن تترك لأبنائك مالاً وعقارا وغير ذلك من متاع الدنيا ما دام من حلال .

ولكن لا يأخذ كل وقتك وتفكيرك ومن أجل أن تترك لهم هذا الخير ترتكب المعاصي والذنوب ، ولتعلم أن الرزق بيدى الله لا بيدى العبد وأن الرازق هو الله وحده لا شريك له وصدق الله العظيم إذ يقول :

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ٩ صـ٢١٠ .

﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [فاطر: ٢] .

يقول مالك بن دينار ـ رحمه الله : كنت أتناول طعامي ذات مرة ، فأتاني قط فخطف قطعة لحم ، فتتبعته ؛ لأرى أين يذهب بها ؟ وإذ به يلقيها أمام جحر ، فأخذت أنظر في ذلك الجحر ، فإذ بثعبان أعمى[1] !

يا سبحان الله ، علماً أن هناك عداء ـ فطريًا ـ غريزيًا بين فصيلة القطط والثعابين، فأي ثعبان أحس بقط فإنه يلدغه من مكان حساس حتى يقضي عليه ، وأي قط أحس بثعبان وأدركه فإنه يضربه على جهازه العصبي حتى يفقده الحركة ثم يحطم رأسه ، ولكن سبحان الله من سخر هذا لذاك وصدق من قال :

لا تعجلن فليس الرزق بالعجل الرزق في اللوح مكتوب مع الأجل

فلو صبرنا لكان الرزق يطلبنا لكنه خُلق الإنسان من عجل

ولذلك يروى أن رجلا ضاق عليه الرزق هو وأولاده ، ففكر ماذا يفعل وهم جياع ، فقال في نفسه :إن أرض الله واسعة ، وتركهم وخرج هارباً منهم ، فأرسل الله إليه ملكا في صورة رجل ، فقال له : يا هذا أين تذهب ؟ قال له : إن أولادي يصرخون جوعاً ، ولم أجد عملا لكي أرزق منه .

فقال له : أتعمل في حديقتي ، قال له : نعم .

فأعطاه دلوا وقال له: اسق هذه الحيوانات من هذه البئر ، فظل الرجل يملأ الدلو ويسقي ، حتى كادت الشمس أن تغرب ولم يشبع من الماء حيوان واحد ، فرمى الدلو، وهمَّ بالخروج ، وإذا بالملك الذي في صورة رجل يأتي ويقول له : إلى أين؟ قال : ما شبع حيوان واحد من الماء ، وكاد النهار أن يمضي ، فقال له : يا هذا ، لقد ظننت أنك الذي ترزق أولادك ، فأعطاك الله درساً فارجع إليهم ، فلما رجع إليهم وجدهم في فرح وسرور وعندهم طعام كثير فسألهم من الذي أحضر لكم

(١) شفاء العليل لابن القيم الجوزية جـ١ صـ ٢٠٠ .

الطعام ، قالوا : لا نعرف إلا أنه جاءنا رجل ، وأعطانا هذا ، وقال : إذا جاء أبوكم فقولوا له : احفظ هذه الآية[١] إن كنت لا تحفظها: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود:٦] .

. . .وتأمل أخي المسلم ما رواه لنا وهب بن منبه رضي الله عنه قال: لبث رجل عابد سبعة أيام لم يرزق شيئاً ، فقالت له امرأته : لو خرجت فطلبت لنا شيئاً ، فخرج فوقف مع العمال فاستؤجر العمال ، وصرف الله عنه الرزق ، ولم يستأجره أحد ، فقال : والله لأعملن اليوم مع ربي ، فجاء إلى ساحل البحر فاغتسل ولم يزل راكعا ساجدا حتى أمسى ، وأتى أهله فقالت امرأته : ما صنعت اليوم ؟ قال : قد عملت مع سيدي ، وقد وعدني أن يعطيني ثم غدا إلى السوق ، فوقف مع العمال ، فاستؤجر العمال وصُرف عنه الرزق ، ولم يستأجره أحد . فقال : والله لأعملن اليوم مع ربي ، فجاء إلى ساحل البحر فاغتسل ولم يزل راكعاً ساجداً حتى أمسى وأقبل على أهله .

قالت له امرأته : ماذا صنعت ؟

قال: إن سيدي قد وعدني أن يجمع لي أجرتي ، فخاصمته امرأته ، وبرزت عليه، ثم خرج في اليوم الثالث كما يخرج وحدث له مثل ما حدث في اليومين السابقين ، ثم قال : إلى أين أمضي ؟

وأنا قد تركت العيال يتضاغون جوعاً ، ثم تحامل على جهد منه ، حتى إذا قرب من باب داره ، سمع ضحكاً وسروراً ، فطرق الباب فخرجت له امرأته وهي ضاحكة في وجهه ، ثم قالت : لقد جاءنا رسول سيدك ، فأتى بدنانير وكسوة وورق ودقيق، وقال : إذا جاء زوجك فأقرئيه السلام وقولي له : إن أستاذك وسيدك يقول لك : قد رأيت عملك ، وقد رضيته ، فإن زدتني في العمل زدتك في الأجر ثم قال:

عليك إذا ضاقت أمورك والتوت بصبر فإن الضيق مفتاحه الصبر

---

(١) مرجع سبقت الإشارة إليه .

ولا تشكون إلا إلى الله وحده فمن عنده تأتي الفوائد والنصر[١]

وهكذا أخي المسلم من أراد أن يحفظ الله له أبناءه وماله وحاله أن يحفظ الله فلا يعصيه ، هذا وقد يحفظ الله العبد بصلاحه في ولده وولد ولده ، كما قيل في قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا ﴾ [الكهف: ٨٢] أنهما حفظا بصلاح أبيهما .

نبيان يبنيان جداراً لغلامين كان أبوهما صالحا هل بعد هذا حفظ !

قال محمد بن المنكدر : إن الله ليحفظ بالرجل الصالح ولده وولد ولده ، وقريته التي هو فيها والدويرات التي حولها ، فما يزالون في حفظ من الله وستر .

وقال سعيد بن المسيب لابنه : يا بني ،إني لأزيدن في صلاتي من أجلك رجاء أن أُحفظ فيك ، وتلا هذه الآية : ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا ﴾ .

وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه : ما من مؤمن يموت إلا حفظه الله في عقبه وعقب عقبه[٢] .

أخي الحبيب . . تذكر حفظ الله ليوسف عليه السلام ـ ابن يعقوب ـ يعقوب الصابر الذي قال: ﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [يوسف: ٦٤] .

قال الحسن البصري : كان منذ فارق يوسف يعقوب إلى أن التقيا ثمانون سنة لم يفارق الحزن قلبه، ودموعه تجري على خديه ، وما على وجه الأرض أحب إلى الله من يعقوب .

وحفظ الله لعمر بن عبد العزيز في أولاده ، ما خلف لهم مالاً فصاروا من أغنى الأغنياء[٣] .

الدرس الثالث : من عمل سوءاً يجز به

﴿ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ [النساء: ١٢٣] .

هذه قصة واقعية من أيامنا هذه ، ترسلها زوجة إلى جريدة الأهرام ونشرها محرر ـ بريد الجمعة ـ عبد الوهاب مطاوع في مقالة تحت عنوان الضوء الأخير .

---

(١) من وصايا القرآن الكريم الشيخ محمد عبد العاطي بحيري جـ١ صـ١٣١، ١٣٤ .

(٢) نور الاقتباس لابن رجب الحنبلي ص٣٩، ٤٠ .

(٣) احفظ الله يحفظك الشيخ القرني ص٢٠ .

دفعني لـلكتابة إليك بيـتا الشعـر اللذان قرأتهـما في ردك على إحـدى الرسائل ويقولان :

إِنَّما الدُّنيَا هِبَاتُ وَعَـــوارُ مستردَّة
شِدَّةٌ بَعدَ رخـــاءٍ وَرَخاءُ بَعدَ شِدَّة

فأردت أن أروز ، لك قصتي ، عسى أن تكون عبـرة لغيري ، فأنا زوجة وأم لفتاة بالسنة النهـائيـة بإحدى الكليـات النظرية ، ولي ابن شـاب مـتزوج ولديه طفـلان ، وزوجي ضابط عـسكري بالمعاش ونعـيش حيـاة رغدة ، وقد اسـتعنت طوال حـياتي الزوجية على تربية أولادي بمربيات عديـدة لا أتذكر عددهن من كثرتهن ، ولا عجب في ذلك ، فقد كانت كل واحدة منهن لا تمكث عندي أكثر من شهرين ، ثم تفر من قسوة زوجي العدواني بطبعه ، والذي لا أعرف هل اكتسب عدوانيته هذه خلال رحلة حياته ، أم أنهـا وراثة فيه ، فقـد كان يتفنن في تعذيب أي مربيـة تعمل عندنا ، ولا أنكر أني شاركته في بعض الأحـيان جريمته ومنذ خمسة عشر عـاما وابنتي في السابعة من عمـرها وابني في المرحلة الإعدادية جـاءنا مزارع من مـعارف زوجي ، ومن أبناء بلدته يصطحب مـعه ابنتـه الطفلة ذات الأعوام التـسعـة ، فاستـقبله زوجي بكـبرياء وترفع، وقال المزارع البـسيط : إنه أتى بابنته لتـعمل عندنا مقـابل عشرين جنيـها في الشهر ووافقنا .

وترك المزارع المكافح طفلتـه الشقـراء ، فانخرطـت الطفلة في البكاء وهي تمسك بجلباب أبيـها وتسـتحلفه ألا يتـأخر عن زيارتهـا وألا ينسى أن يسلم لها على أمـها وإخوتها ، وانصرف الرجل دامع العينين ، وهو يعدها بما طلبت .

وبدأت الطفلة حياتها الجـديدة معنا ، فكانت تستيقظ في الصبـاح الباكر قبل أن يستيقظ طفلاي ؛ لتساعدني في إعداد طعام الإفطار لهما ، ثم تحمل الحقائب المدرسية وتنزل بها إلى الشارع وتظل واقـفة مع ابنتي وابني حتى يحملهـما أتوبيس المدرسة ، وتعود للشـقة فتـتناول طعام إفطارها وكان غـالبا من الفول دون زيت ، وخـبز على وشك التعفن ، وفي بعض الأحيان قد نجود عليها بقليل من العسل الأسود أو الجبن، ثم تبدأ ممارسة أعمال البيت من تنظيف وشـراء الخضار والمسح وتلبية النداءات ، حتى

منتصف الليل ، فتسقط على الأرض كالقتيلة وتستغرق في النوم ، وعند أي هفوة أو نسيان أو تأجيل أداء عمل مطلوب ، ينهال عليها زوجي ضربا بقسوة شديدة ، فتتحمل الضرب باكية صابرة ، ورغم ذلك ، فقد كانت طفلة في منتهى الأمانة والنظافة والإخلاص لمخدوميها تفرح بأبسط الأشياء وتغني غناءً حزيناً خافتاً يعبر عن شوقها لبلدتها ، وأمها وإخوتها ، وهي تغسل الأطباق ، ورغم اعترافي بأني كنت شريكة لزوجي في قسوته على الخادمات وتفننه في تعذيبهن ، حتى أنه كان يختلق الأسباب لضرب أية خادمة تعمل عندنا ، إلا أنه كانت تأخذني الشفقة في بعض الأحيان بهذه الفتاة لطيبتها ، وانكسارها ، وإخلاصها .

فأناشد زوجي ألا يضربها ، وأقول له: قد كبرت وتعودت على طباعنا ، وتحملتنا كثيرا ، فلا داعي للاستمرار في ضربها ، فكان يقول لي مقهقهاً : إنه لو لم يضربها فإنها ستطلب منه أن يضربها لأنها قد تعودت عليه وأن هذا الصنف من الناس لا تجدي معه المعاملة الطيبة . واستمرت الفتاة تتحمل العذاب في صمت وصبر ، وأتذكر الآن بأنه حين كان العيد يأتي ، ويخرج طفلاي مبتهجين مهللين ، بينما تبقى هذه الطفلة التي تماثلهما في العمر ، تنظف وتغسل دون شفقة ، وبعد أن تنتهي من أعمالها الشاقة ترتدي فستانا قديما لكنه نظيف ، لأنها كانت تحرص على نظافة ملابسها البسيطة ، أما أبوها فلم تره تلك الطفلة إلا مرات معدودة بعد عملها عندنا فقد انقطع عن زيارتها بعد شهور ، وبدأ يرسل أحد أقاربه لاستلام أجرتها الشهرية ، كما لم تر أمها وإخوتها إلا في ثلاث مناسبات محددة :

الأولى : حين مات شقيقها الأكبر في حادث عند عودته من الأردن ، وكانت الفتاة المحرومة تعلق أملاً كبيراً على عودته ، وتحلم بأنه ينتشلها من العذاب الذي تعانيه عندنا ، فإذا به يلقى مصرعه ، وتفقد آخر أمل لها فبكته بحرقة وسراً حتى لا يراها زوجي ، فتلقي عقابا على يديه .

والمرة الثانية :لم يكن عطفا منا عليها ، وإنما كانت تخلصا منها في الحقيقة فقد كانت مريضة بمرض معدي ، وخشينا على طفلينا من انتقال العدوى إليهما ، فأبعدناها إلى بلدتها بحجة أن ترى أمها وإخوتها .

وكانت المرة الثالثة : عند وفاة أبيها بعد أن دخلت مرحلة الصبا ، واستقر الحزن والانكسار في قلبها .

وأرجو أن تصدقني يا سيدي ، إذ ليس لدي ما يبرر أن أدعي شيئاً غير صادق وأنا كتبت لك بإرادتي ، إذ قلت: إني أبكي كلما تذكرت قسوة عقابنا لها ، إذا أخطأت أي خطأ ، وكان لا بد أن تخطئ ـ كأي طفلة ـ وكأي إنسان فقد كان زوجي يصعقها بسلك الكهرباء ، وكثيراً ما حرمناها من وجبة العشاء في ليالي البرد القاسية، فباتت على الطوى جائعة ، ولا أتذكر أنها نامت ليلة لمدة سنوات طويلة دون أن تبكي.

وسوف أتساءل : ولماذا تحملت كل هذا العذاب ولم تهرب بجلدها من جحيمكم؟ وأجيبك : بأن الفتاة حين قاربت سن الشباب خرجت ذات يوم لشراء الخضراوات ولم تعد ، فسأل زوجي البواب عنها ، وعرف أنها كانت تتحدث لفترات طويلة مع شاب يعمل لدى جزار بنفس الشارع ، وأنه من المحتمل أن تكون قد اتفقت معه على أن يتزوجها وينتشلها من هذه الحياة فلم يمض أسبوع حتى كان نفوذ زوجي قد تكفل بإحضارها من مخبئها ، واستقبلناها عند عودتها استقبالا حافلاً بكل أنواع العذاب فقام زوجي بصعقها بالكهرباء ، وتطوع ابني بركلها بعنف بينما بكت ابنتي ، وهي تقول لأبيها : حرام يا بابا ، حرام ، ففقد سيطرته على نفسه واستدار إليها وضربها هي أيضاً وكانت المرة الأولى في حياتها التي يضربها فيها أبوها ، وعادت الفتاة لحياتها الشقية معنا ، واستسلمت لمصيرها ، واستمر الوضع لما كان عليه عندما تخطئ أو تؤجل عمل شيء بعض الوقت فيضربها زوجي ضربا مبرحا ، ونخرج في الأجازات إلى منطقة الأهرامات لنستمتع بشيء من اللحم ، ونترك لها بقايا طعام الأسبوع لتأكله ثم شيئاً فشيئًا بدأنا نلاحظ عليها أن الأكواب والأطباق تسقط من يديها، وأنها تتعثر كثيراً في مشيتها ، فعرضناها على الطبيب ، فأكد لنا أن نظرها قد ضعف جداً ، وأنه ينسحب تدريجياً ، وأنها لا ترى حالياً ما تحت قدميها ـ أي أنها أصبحت شبه الكفيفة ـ ورغم ذلك فلم نرحمها وظلت تقوم بكل أعمالها من نظافة المسكن وتخرج لشراء الخضراوات ، كما كانت تفعل بل وكثيراً ما صفعتها ، إذا

عادت من السوق بخضراوات ليست طازجة وكثيراً ما كانت تفعل لضعف بصرها الشديد ، فأشفقت عليها زوجة البواب فكانت تجلسها في مدخل العمارة وتذهب هي لشراء الخضراوات لها ،حتى تنقذها من الإهانة والضرب ، واستمر الحال هكذا لفترة من الزمن ، ثم خرجت الفتاة من البيت بعد أن أصبحت كفيفة تقريباً ولم تعد إليه مرة أخرى ، ولم نهتم بالبحث عنها هذه المرة .

ومضت السنوات فأحيل زوجي للتقاعد واستقبل حياة الفراغ وفقد المنصب والنفوذ أسوأ استقبال ، فتضاعفت عصبيته ، وثورته وانفلتاته إلى حد غير محتمل ومع ذلك فقد تحملته بسبب عشرة السنين .

وتخرج ابني من الجامعة وعمل ، ثم أراد أن يخطب إحدى زميلاته ، فخطبناها له ، وهي فتاة رائعة الجمال ، وتزوجها وسعدنا بها واكتملت سعادتنا حين عرفنا أنها حامل ، ثم جاءت اللحظة السعيدة ، ووضعت مولودها ، فإذا بنا نكتشف لصدمتنا القاسية أنه كفيف لا يبصر ، وتحولت الفرحة إلى سحابة كثيفة من الحزن القاتم ، وبدأنا الرحلة الطويلة مع الأطباء ، بلا فائدة . واستسلم ابني وزوجته للأمر الواقع ، وانطفأ الأمل في قلبيهما وأدخلنا حفيدنا الموعود بالعناء حضانة للمكفوفين ، وقررت زوجة ابني ألا تحمل مرة أخرى ؛ خوفا من تكرار الكارثة . لكن الأطباء طمأنوها إلى أن هذا مستحيل ؛ لأنه لا توجد صلة قرابة بينهما وبين زوجها ،كما يؤكد ذلك العوامل الوراثية ، وشجعوها على الحمل وإنجاب طفل آخر يعيد البسمة إلى حياتها وزوجها وشجعناها نحن أيضاً على ذلك ، على أمل أن يرزق ابننا بطفل طبيعي يخفف من حزنه ، وصدمته في طفله الأول ، وحملت زوجة ابني وأنجبت طفلة جميلة شقراء نزلت إلى الحياة ، فتوقفت قلوبنا حتى زف الطبيب البشرى بأنها ترى وتبصر ، كالأطفال العادين وسعدنا بها سعادة مضاعفة وانهالت عليها وعلى شقيقها اللعب والملابس والهدايا ، وبعد سبعة شهور لاحظنا عليها أن نظرها مركز في اتجاه واحد لا تحيد عنه، فعرضناها على أخصائي عيون؛ للاطمئنان على سلامة عينها ، فإذا به يصدمنا بحقيقة أشد هولاً ، وهي أنها لا ترى إلا مجرد بصيص من الضوء وأنها معرضة أيضاً لفقد بصرها ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ورأى زوجي ذلك ، فأصيب بحالة نفسية ، فسدت معه أيامه ، وكره كل شيء، ثم تطورت حالته حتى نصحنا الطبيب بإدخاله مصحة نفسية ، لعلاجه من الاكتئاب ، وانقبض قلبي ، وأحسست بهموم الدنيا تطأ صدري بقسوة، وفي ضيقي وأحزاني تذكرت فجأة الفتاة الكبيرة التي هربت من جحيمنا كفيفة بعد أن أمضت معنا عشر سنوات ، ذاقت خلالها أهوال الصعق بالكهرباء ،والضرب ، والهوان ، والحرمان ، وسألت نفسي في جزع هل هذا عقاب السماء لنا على ما فعلناه بها . . .؟

وأصبحت صورة هذه الفتاة اليتيمة التي أهملنا علاجها وتسببنا في كف بصرها ، تطاردني في وحدتي ، وتعلق أملي في عفو ربي عما جنينا في أن أجد هذه الفتاة ، وأكفر عما فعلنا بها ، ورحت أسأل الجميع حتى دلنا أحد الجيران إلى مكانها ، وعلمنا أنها تعمل خادمة بأحد المساجد ، فذهبت إليها وأحضرتها ؛ لتعيش معي ما بقى لي من أيامي ، ورغم كل قسوة الذكريات فقد فرحت بسؤالي عنها وسعيي إليها، لإعادتها وحفظت العشرة التي لم نحفظها ، عادت معي تتحسس الطريق وأنا أمسك بيدها وفرحت بسماع صوت ابنتي الشابة التي طالما أحبتها هذه الفتاة الطيبة في طفولتها ، وصباها وبسماع صوت ابني الذي عرف الهم طريقه إلى قلبه ، واستقرت الفتاة معنا وأصبحت أرعاها وأخدمها هي وحفيديَّ الكفيفين وأملي ودعائي لربي أن يغفر لي ما كان .

وأن أقول لمن نضبت الرحمة من قلوبهم إن الله حي لا ينام ، فلا تقسوا على أحد ، فسوف يجيء يوم تطلبون فيه الرحمة من أرحم الراحمين وتندمون على ما فعلتم في قوتكم وجبروتكم .

هذه هي قصتي يا سيدي التي دفعني بيتا الشعر اللذان قرأتهما في ردك لأن أرويها لك ،وأرجو أن يقرأها الجميع ، ويعتبروا بما فيها والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

ثم رد المحرر عبد الوهاب مطاوع على هذه الرسالة ، معلقا وهكذا كان الجزاء من جنس العمل ، ومع ذلك فما أكثر الخطايا والآثام وما أقل الاعتبار[1] .

---

(١) جريدة الأهرام بريد الجمعة، الصفحة ١٦ ، تاريخ ١٥/ ١/ ١٩٩١م .